«منهجُ تصنيفِ الكتابِ»

حاولْتُ في هذا الكتابِ، أنْ أتَّبعَ الطَّريقةَ الائتلافيَّةَ، والَّتي تقومُ على الجمعِ بين مزايا الطُّرقِ الثَّلاثِ: الطَّريقةِ الاستقرائيَّةِ والطَّريقةِ القياسيَّةِ وطريقةِ النّصِ.

وبدأْتُ بطريقةِ النَّصِ، إذْ افتتحْتُ الدَّرسَ بنصٍ حيٍّ شائقٍ، منتمٍ للمفهومِ النَّحويّ أو الصَّرفيّ، يزخرُ بالقيمِ الدِّينيَّةِ والخُلقيَّةِ، يفيدُ الطَّالبُ منها في واقعه الحياتّي، ثمَّ تناولْتُ النَّصَّ بالمناقشةِ خلالَ مجموعةٍ من الأسئلةِ، يُجيبُ عنها الطَّالبُ، ثمَّ انتقلْتُ بعدَ ذلكَ إلى المُدَارسةِ، حيثُ تتبَّعْتُ القواعدَ فقرَّرْتُها على الطَّريقةِ القياسيَّةِ، ولكنَّني لم أقتصرْ على تقريرِ القواعدِ في سياقٍ واحدٍ جامعٍ، بل شفّعْتُ كلَّ قاعدةٍ بعددٍ من الأمثلةِ، على مستوى الاستعمالِ ، فإذا انتقلَ الطَّالبُ إلى التَّدريبِ يكونُ قد تدرَّجَ من الأمثلةِ المحدودةِ المباشرةِ إلى النَّصِ الكاملِ- بعدَ ذلك – كتطبيقٍ على النَّصِ المُقدَّمِ؛ ليتاحَ للطَّالبِ فرصةُ اكتشافِ القاعدةِ وتطبيقِ معرفتِه بها. في مثلِ السِّياقِ الطَّبيعيّ الذي تَعْرِضُ فيه ، وهو السِّياقُ النَّصيُّ الكاملُ الذي يجري به الاستعمالُ اللُّغويُّ عادةً.

وينتظمُ هذا النَّهجَ الائتلافيَّ الذي اتَّبعْتُه اعتباراتٌ إضافيَّةٌ، أُحِبُّ أنْ تقفَ عليها خلال النِّقاطِ الآتيةِ:

1- النّصوصِ المشرقةِ، والأمثلةِ الواقعيَّةِ الحيَّةِ:-

وأوّلُ هذه الملامح، أنّي حَرَصْتُ على أنْ تكونَ النُّصوصُ والأمثلةُ التي تُسْتَخْرَجُ منها القواعدُ في مرحلةِ الاستقراءِ، وتوضَّحُ بها القواعدُ في مرحلةِ القياسِ، وتُبْنَى عليها التَّمريناتُ في مرحلةِ التَّطبيقِ، حيَّةً شائقةً تنطوي على مضامينَ إيجابيَّةٍ، تحملُ لمحاتٍ محلّيةً، ثم تمتدُّ عبرَ المكانِ العربيّ والزَّمانِ العربيِّ الإسلاميِّ، فتستوعبُ نصوصاً من القرآنِ الكريمِ، والحديثِ النَّبويّ الشَّريفِ، وعيونِ الشِّعرِ العربيّ، وجوامعِ الكلمِ من الأمثالِ والحكمِ، وضروباً من الاستعمالِ الجاري في لغةِ الحياةِ العامّةِ والصَّحافةِ؛ لتَظلَّ القواعدُ في مدارِها الطَّبيعيّ الذي تحيا به وتحيا فيه؛ وليكونَ تَعلّمُها في سياقٍ من التَّوجيهِ التَّربويّ المُستقبلِ ، الذي يبني لدى الطَّالبِ القيمَ ويصقلُ ذوقَه، وينمِّي سليقَتَه اللُّغويَّةَ الإيجابيَّةَ.

2- المشاركةِ والتَّعلّمِ الذَّاتيّ:

ونهجْتُ في استقراء النُّصوص ومناقشتها نهجاً يقومُ على المشاركة، مشاركة الطَّالب، ويعتمدُ على تشجيعِ التَّعلُّمِ الذَّاتيّ؛ ليكونَ الطَّالبُ عنصراً إيجابيَّاً فعَّالاً؛ وليكونَ حاضراً باستمرارٍ؛ ولأبتعدَ به عن موقفِ التَّلقّي السَّلبيّ، وهذا تفسيرُ ما يجدهُ المعلّمُ والطَّالبُ في سياقِ المناقشةِ، منْ مواضعَ كثيرةٍ تركْتُها فراغاً يملؤه الطَّالبُ.

3- العنايةِ بالمفاهيمِ:

وقَدْ عنيْتُ عنايةً واضحةً بالمفاهيمِ، وهو نهجٌ منسجمٌ مع اتِّجاهاتٍ حديثة، ترى في جلاء المفاهيمِ عوناً على استيضاحِ المعاني الكلّية الجامعة لأمثلة الظَّواهرِ، وتمثّلها تمثُّلاً يُعينُ على التَّمييزِ والفرزِ، ويمكِّنُ المتعلِّمَ منْ تصوّرِ الأُطُرِ والأصولِ التي تنتظمُ الأمثلةَ الجزئيَّةَ التي تتجدَّدُ وبأشكالٍ غيرِ مُتناهيةٍ.

4- الوظيفيَّةِ:

إنَّ الاعتقادَ الثَّابتَ بأنَّ القيمةَ النَّهائيَّةَ للقواعد عندَ الطَّالبِ، تكمنُ في قدرته على الانتفاعِ بها في مواقفِ الاستعمالِ ، كانَ موجّهاً ثابتاً في الاعتناءِ بالجانبِ الوظيفيِّ للقواعد. ويتجاوزُ هذا الاعتناء حرصي الواضح على وضعِ القواعدِ في سياقِ نصوصٍ وأمثلةٍ، ممَّا يجري به الاستعمالُ؛ لتكونَ عوناً للطَّالبِ على تصحيحِ القراءةِ إنْ قرأَ والكتابةِ إنْ كَتَبَ.

5- العنايةِ بالأخطاءِ الشَّائعةِ:

إذا كانَ الواقعُ الرَّاهنُ في تحصيلِ اللُّغةِ العربيَّةِ، يشيرُ إلى أنَّ أبناءَ العربيِّةِ يعانون منْ ضعفٍ ظاهرٍ، وأنَّ الضَّعفَ يتمثَّلُ في مجموعةٍ من الأخطاءِ الشَّائعةِ المُشتركةِ التي يقعونَ فيها، فَقَدْ حَرَصْتُ بصورةٍ ثابتةٍ على التَّنبيهِ على هذه المواضعِ ومعالجتها، وتدريبِ الطَّالبِ على كشفها وتصحيحها، في سياقِ تناولنا للأبوابِ التي تعرضُ فيها، بل كانَ البابُ الأخيرُ منْ أبوابِ هذا الكتابِ، يتناولُ الأخطاءَ الشَّائعةَ بصورةٍ تفصيليَّةٍ نوعاً ما.

6- مراعاةِ الفروقِ الفرديَّةِ:

ولا رَيْبَ أنَّ إتقانَ القواعد يمثّلُ فرضَ عينٍ على أبناء العربيَّةِ؛ أيْ أنَّ كلَّ طالبٍ محتاجٌ الى أنْ يعرفَ هذه القواعدَ معرفةً كافيةً، أوْ أنْ يعرفَ منْ هذه القواعدِ قدْراً كافياً، ولكنَّني

أعلمُ أنَّ درجةَ الإحاطةِ والإتقانِ تظلُّ متفاوتةً، وأنَّ الطَّلبةَ يتفاوتون في قدراتهم؛لذلك جعلْتُ الأمثلةَ متنوّعةً؛ لتوافقَ مستوياتِ الطَّلبةِ على تفاوتِهم. فالمثالُ القريبُ المُتَناوَلُ، يقعُ إلى جوارِ النَّصِ الذي يحتاجُ تذوّقُهُ إلى لُطْفِ نظرٍ، والقاعدةُ الأساسيّةُ مقترنةٌ بالزَّوائدِ و الفوائدِ.

والتَّمريناتُ التي تتناولُ القواعدَ الرَّئيسةَ، مشفوعةٌ بتمريناتٍ تنطوي على ملاحظَ وفطنٍ لطيفةٍ، وهكذا حتى يجدَ الطَّلبةُ على اختلافِ مستوياتهم، أنَّهم يأخذونَ من الكتابِ على قدرِ استعداداتهم ، دونَ أنْ يخلَّ هذا التَّفاوتُ بتحقيقِ الحدِّ الضَّروريّ الكافي على كلِّ حالٍ. ولا يخفى عليكَ عزيزي القارئ، أنَّ هذا الكتابَ قد عُنْوِنَ له بـ " مغنى الألباب" فإنَّ اللَّبيبَ ليجدُ في هذا الكتابِ ضالَّتَه من معلوماتٍ نفيسةٍ ، وأسئلةٍ ذكيَّةٍ وشبكاتٍ مفاهيميَّةٍ، وقَدْ يضيقُ البعضُ ذرعاً بها، ولكنَّها ستجدُ سبيلَها إليهم في مستقبلِ الأيَّامِ، إنَّ اللهَ وليُّ ذلكَ والمستعانُ.

وقَدْ يبدو أحياناً أنَّني أُسرفُ في التَّبسيطِ والتَّوضيحِ، وإطالةِ الشَّرحِ في تحليلِ الأمثلةِ واستخراجِ القواعدِ، ولكنَّ هذا التَّبسيطَ الذي يشوقُ جمهورَ الطَّلبةِ، يستطيعُ الطَّالبُ المتفوِّقُ أنْ يمرَّ به مرورَ الكرامِ، إلى المسائلِ التَّفصيليّةِ والتَّحليليّةِ الدَّقيقةِ.

7- الإكثارِ منَ الأسئلةِ والتَّدريباتِ:

لَقَدْ كَثُرَت التَّدريباتُ على اختلافِ مستوياتها وتنوّعِ أهدافها، حتى غدا الكتابُ "مَصْرِفاً" للأسئلةِ النَّحويَّةِ والصَّرفيَّةِ ، كما تميَّزَ بالإجابةِ عن معظمِ الأسئلةِ، بينما تُرِكَتْ فئةٌ قليلةٌ منَ الأسئلةِ تحتَ عنوان "التَّقويمِ الذَّاتيّ أو النَّشاطِ الختاميّ"؛ ليطلقَ أبناءُ العربيَّةِ جيادَ عقولِهم في التَّفكيرِ والتَّحليلِ؛و لتبقى الأسئلةُ الأخرى بحلولِها، مُعيناً للطَّالبِ على تلمّسِ مستواهُ ومعرفةِ الجوابِ إنْ عَثُرَتْ خُطاه.

8- ربطِ القواعدِ بالقرآنِ الكريمِ:

ويلحظُ القارئُ هذا الرَّبطَ خلالَ تتبّعِه للأمثلةِ والأسئلةِ ، حيثُ قُدِّمَ في كلِّ درسٍ نحويٍّ أو صرفيٍّ عشراتُ الآياتِ القرآنيَّةِ؛ لتبقى صلةُ الطَّالبِ بكتابِ ربّه قائمةً. ولقد احتوى هذا الكتابُ ما يربو على ألفِ آيةٍ ومئة حديث نبويّ شريف.

9- الاعتناءِ بالتَّعلُّمِ القبليِّ:

حيثُ حُدِّدَ التَّعلّمُ القبليّ لكلِ مفهومٍ، وقُدِّمَتْ مادةٌ إثرائيّةٌ في التَّعلّمِ القبليّ في نهايةِ كلِّ جزءٍ من أجزاءِ الكتابِ.

ولماذا الاعتناءُ بالتَّعلّمِ القبليّ؟

«إنَّ نظريَّةَ التَّعلّمِ ذي المعنى (لأوزوبل) تركّزُ على تنظيمِ المادَّةِ الدِّراسيَّةِ، وعلى التَّعلّمِ السَّابقِ، فقَدْ دَمَجَ (أوزوبل) بين فكرتيّ (برونر وجانييه) بالتَّركيزِ على البُنيةِ المعرفيَّةِ السَّابقةِ لدى المُتعلِّمِ، إذ قَسَّمَ أُوزوبل التَّعلّمَ إلى تعلّمٍ استقباليّ، وآخرَ اكتشافيّ، حيثُ يحدثُ التَّعلّمُ ذو المعنى إذا ما تمَّ ربطُ المادَّةِ التَّعليميّةِ بالخبراتِ السَّابقةِ للمُتَعلِّمِ، وذلك بإتاحةِ الفُرصةِ أمامَ المُتعلِّمِ لإيجادِ روابطَ حقيقيَّةٍ، وليستْ عشوائيَّةً بين المفاهيمِ الجديدةِ، وتلك التي تمَّ تكوينُها مُسبَقاً في البناءِ المعرفيّ لديه». (**داوود ومهدي 1991**).

ومنَ القواعدِ التَّربويَّةِ المعروفة:"ابدأ مع الطَّالبِ منْ حيثُ هو، لا منْ حيثُ أنتَ" فالتَّعلّمُ ربطُ المعلوماتِ الجديدةِ بالمعرفةِ السَّابقةِ، فإذا كانَ التَّعلّمُ القبليُّ لدى الطَّالبِ غيرَ متحصّلٍ ، فكيفَ يستقبلُ التَّعلّمَ الجديدَ؟! فطالبٌ مثلاً لا يعرفُ مكوّناتِ الجملةِ الاسميَّةِ ، وعلاماتِ الرَّفعِ للأسماءِ في العربيَّةِ، كيفَ يتمكّنُ منْ إدراكِ وتعلّمِ درسِ (كان وأخواتها) مثلاً؟

ولعلَّ منْ أهمِّ أسبابِ ضعفِ الطَّلبةِ في اللُّغةِ العربيّةِ، عدمَ متابعةِ التَّعلّمِ القبليّ لديهم. فالحرْصَ الحرصَ على التَّعلُّمِ القبليّ، الذي قَدْ يُعَدُّ لازماً لأكثرَ من درسٍ نَحويَّ، ولله درُّ القائلِ "منْ أحكَمَ البداياتِ، سلِمَتْ له النِّهايات".

11- الاعتناءِ بالطَّالبِ المتميِّزِ:-

لقَدْ انسجَمَتْ المادّةُ المقدّمةُ في هذا الكتابِ مع عنوانه الذي عُرِف به "مُغني الألباب عن كتبِ الصَّرفِ والإعراب" فما زالت "العناوين أنصافَ الكتبِ" كما يقولون. فكانَ الكتابُ غنيّاً بالمعلوماتِ المقدَّمةِ والأسئلةِ المطروحةِ، وخاصّةً ما جاءَ تحت عنوان "فوائد وزوائد" و "اختبرْ ذَكَاءَك" ؛لأنَّ هذه الفئةَ من الطَّلبةِ تستحقُّ منَّا – نحنُ المربِّين- أنْ نقفَ عندها وقْفَةً متأنّيةً تفي هذه الفئةَ مستواها منَ التَّفكيرِ والقدرةِ والإبداعِ والاستيعاب ، فخصصناها بنوعٍ من المعالجةِ متميّزٍ، حتى لنأخذَ بأيديهم أحياناً إلى مستوًى متقدّمٍ، كيف لا؟! وهم أملُ الأمّةِ ومِفْتاحُ التقدّمِ والازدهارِ ، فإنّ أغلى ممتلكاتِ الأمّةِ عقولُ أبنائها .

12- ربطِ الطَّالبِ بالحاسوبِ والشَّبكةِ الإلكترونيَّةِ:

وهذا يُلْحَظُ من خلالِ إحالتِه إلى الحاسوبِ وإلى الشبكةِ الإلكترونيّةِ، لتلخيصِ قاعدةٍ أو التَّطبيقِ على مفهومٍ، أو البحثِ عن إجابةٍ، وذلكَ منْ خلالِ توظيفِ مُعَالجِ النُّصوصِ، أو منْ خلالِ برنامجِ العروضِ التَّقديميَّةِ، أو غيرِ ذلك؛ وذلك ليبقى الطَّالبُ متَّصلاً بمستجدَّاتِ العصرِ وإنجازاتِه ومعارفِه.

13- الاهتمامِ بالشَّبكاتِ المفاهيميَّةِ:

ولماذا كانَ الاهتمامُ بالشَّبكاتِ المفاهيميَّةِ، والإكثارِ منها في هذا الكتابِ؟!

تُعْتَبَرُ الخرائطُ المفاهيميَّةُ أداةَ تعلّمٍ؛ إذ تُسهمُ في تنظيمِ المعرفةِ وَفْقَ أُسُسٍ ومبادئَ، وقَدْ اعتُبِرَتِ الخريطةُ المفاهيميّةُ حيلةً ذهنيَّةً معرفيّةً متقدِّمةً، يتحايلُ مَنْ خلالِها المتعلِّمُ لتخزينِ المعرفةِ بهدفِ استحضارِ هذه الخبرةِ عندَ الحاجةِ إليها.

والخريطةُ المفاهيميَّةُ تقدّمَتْ لتصبحَ أداةً مثيرةً للتَّفكيرِ، وتثيرَ العملَ الذِّهنيَّ بطريقةٍ تصويريَّةٍ تُوَظَّفُ فيها عملياتٌ ذهنيَّةٌ غيرَ الصُّورةِ اللَّفظيَّةِ، ممَّا يثيرُ التَّعلُّمَ ويغنيه، وتجعلُ الخريطةُ الذِّهنيَّةُ التَّعلّمَ تعلّماً فاعلاً نشطاً، ويكونُ فيها المتعلِّمُ حيوياً.

"أمّا الخريطةُ المفاهيميَّةُ في تعلّمِ القواعدِ العربيَّةِ، فهو استعمالٌ جديدٌ.وقَدْ تمَّ توظيفُ التَّنظيمِ الخرائطيّ المفاهيميّ في تعلُّمِ القواعدِ العربيَّةِ؛ لما لتعلّمِ هذا الموضوعِ من صعوبةٍ تواجهُ الطَّلبةَ، وتتدنّى مهاراتُ بعضِ معلّمي اللُّغةِ العربيَّةِ، في إيصالِ هذه المعلوماتِ للطَّلبةِ، ولقد لمسْنَا هذه الحاجةَ الماسَّةَ لتعلّمِ القواعدِ العربيّةِ، فجاءَتْ هذه المحاولةُ عمليّةً تسهّلُ تعلّمَ القواعدِ العربيّةِ في بعضِ المواضعِ، وتزوّدُ معلميّ اللُّغةِ العربيَّةِ وغيرِهم بخرائطَ، يمكنُ أنْ توظَّفَ في تعلّمِ اللُّغةِ وتنظيمِ الموادِ الدِّراسيَّةِ الأُخرى، ومِنْ هنا جاءَت أهميَّةُ هذا المنحنى"[1].

الخريطةُ تنظيمٌ للبُنى المعرفية	
المُعلِّم	المُتعلِّم
■ يقدّم خبراتٍ.	■ يتفاعلُ مع الخبراتِ والمواقفِ.
■ يعرضُ مواقفَ.	■ ينظّمُ الموقفَ لكي يسهلَ عليه استيعابَه.
■ يوفّرُ فرصَ مناقشةٍ.	■ يشاركُ في المناقشةِ ويولّدُ قضايا.
■ يهيّئُ فرصَ الوصولِ إلى الاستنتاجاتِ.	■ يولّدُ استنتاجاتٍ ويختبرُها.
■ يبني جداولَ للاسترجاعِ.	■ يبني جداولَ استرجاعٍ للوصولِ إلى استنتاجاتٍ معرفيَّةٍ ذكيَّةٍ.

1) "الخرائطُ المفاهيميَّةُ أسسها النَّظرية وتطبيقات على دروس القواعد العربيَّة" .
الأستاذُ الدّكتور (يوسف قطامي والدّكتور محمَّد أحمد الرُّوسان)، دار الفكر، الطَّبعة الأولى. 2005م- 1426هـ